المحاضرة الحادية عشرة

الخطبة رقم ٢٣٢

ومن كلام له عليه السلام بعد أن أقدم أحدهم على الكلام فحُصِر، وهو في فضل أهل البيت ع ووصف فساد الزمان

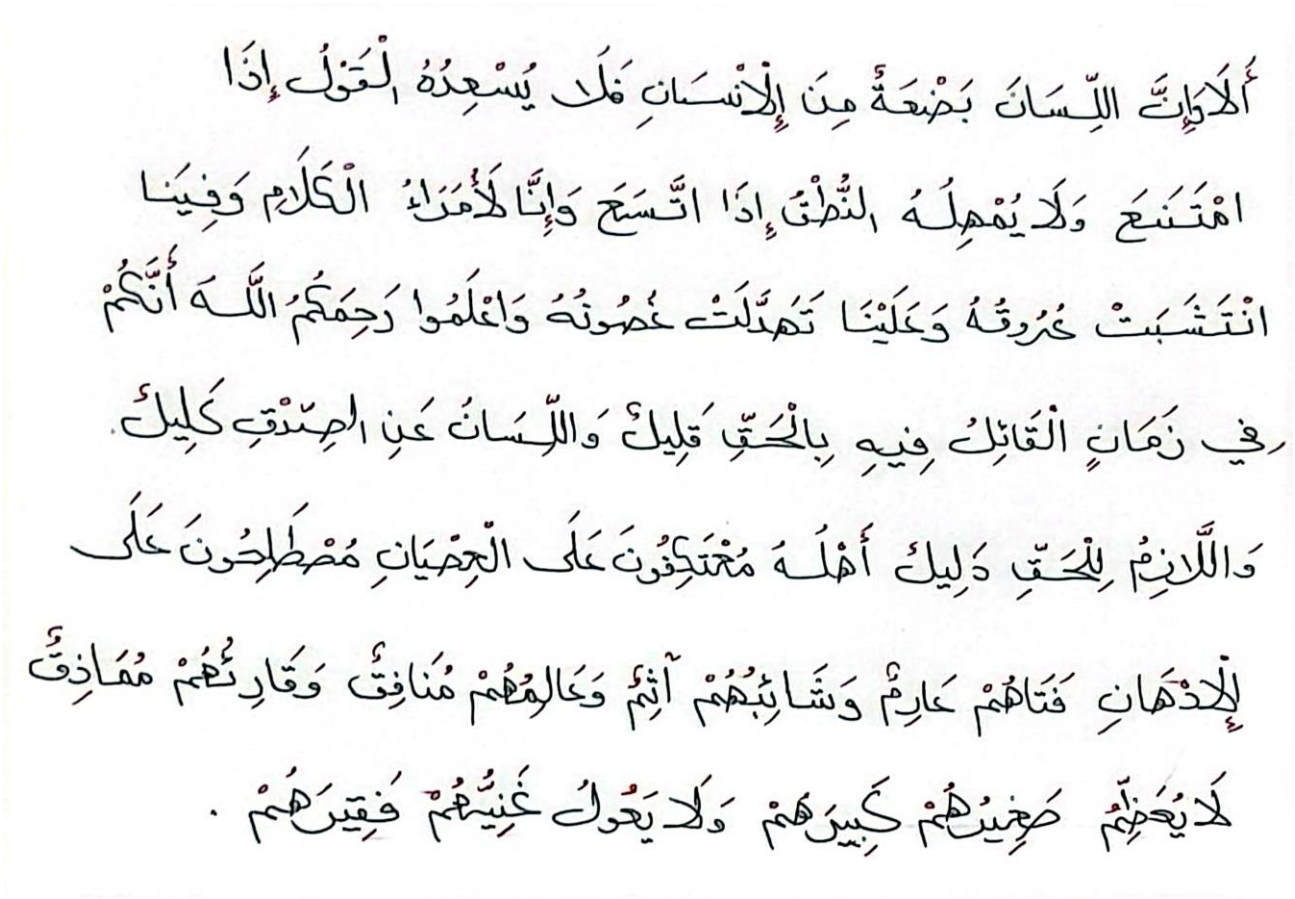

أَلَا وَإِنَّ اللِّسَانَ بَضْعَةٌ مِنَ الْإِنْسَانِ فَلَا يُسْعِدُهُ الْقَوْلُ إِذَا امْتَنَعَ وَلَا يُمْهِلُهُ النُّطْقُ إِذَا اتَّسَعَ وَإِنَّا لَأُمَرَاءُ الْكَلَامِ وَفِينَا انْتَشَبَتْ عُرُوقُهُ وَعَلَيْنَا تَهَدَّلَتْ غُصُونُهُ وَاعْلَمُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ أَنَّكُمْ فِي زَمَانٍ الْقَائِلُ فِيهِ بِالْحَقِّ قَلِيلٌ وَاللِّسَانُ عَنِ الصِّدْقِ كَلِيلٌ وَاللَّازِمُ لِلْحَقِّ ذَلِيلٌ أَهْلُهُ مُعْتَكِفُونَ عَلَى الْحِرْمَانِ مُصْطَلِحُونَ عَلَى الْإِدْهَانِ فَتَاهُمْ عَارِمٌ وَشَائِبُهُمْ آثِمٌ وَعَالِمُهُمْ مُنَافِقٌ وَقَارِئُهُمْ مُمَاذِقٌ لَا يُعْظِمُ صَغِيرُهُمْ كَبِيرَهُمْ وَلَا يَعُولُ غَنِيُّهُمْ فَقِيرَهُمْ .

معاني المفردات

١ـ بضعة: قطعة

٢ـ فلا يسعده: لا يُعينه

٣ـ النطق: اللفظ الخارجي والكلام

٤ـ تنشّبت: علقت وثبتت

٥ـ العروق: جمع عرق، وهو أصل كل شيء، وعروق البدن أوردته التي يجري فيها الدم

٦ـ تهدّلت: تدلّت

٧ـ كلَّ لسانه: نبا عن الغرض، والكلال التعب والإعياء

٨ـ عكف في المكان: أقام فيه ولازمه، واعتكف احتبس وتوقف ولبث

٩ـ اصطلحوا: اتفقوا

١٠ـ الإدهان: المداهنة وهي إظهار خلاف ما يضمر

١١ـ فتاهم: الفتى الشاب الحدث

١٢ـ عارم: شرس، سيء الأخلاق، المؤذي

١٣ـ الشائب: من الشيب وهو بياض الشعر، وهو مقابل الفتى

١٤ـ آثم: عاصٍ

١٥ـ القارىء: الناسك العابد

١٦ـ المماذق: غير المخلص

١٧ـ لا يعول: لا يقوم بمعاشهم

شرح النص

قال الامام ع هذه الكلمات عندما أمر ابن اخته (جعدة بن هبيرة وأمه فاختة ام هانئ) أن يخطب بالناس فلما صعد المنبر حُصِر ولم يستطع الكلام فصعد الإمام بنفسه وخطب.

كان جعدة بن هبيرة المخزومي رجلاً شجاعاً وقال له رجل يوماً: هذه الشجاعة أخذتها من خالك، قال: لو كان لك خال كخالي لنسيت أباك.

ومما قاله جعدة: أَبِي مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ إِنْ كُنْتَ سَائِلًا وَمِنْ هَاشِمٍ أُمِّي لِخَيْرِ قَبِيلِ

فَمَنْ ذَا الَّذِي بَاهَى عَلِيَّ بِخَالِهِ كَخَالِي عَلِيٍّ ذِي النَّدَى وَعَقِيلِ

(أَلا إِنَّ اللِّسَانَ بَضْعَةٌ مِنَ الإِنْسَانِ) أي قطعة حاله حال بقية الأعضاء يتأثر بتأثر الإنسان .

(فَلاَ يُسْعِدُهُ الْقَوْلُ إِذَا امْتَنَعَ) لا يأتي الكلام إلى اللسان إلا عندما يحضر ذهن الإنسان فإذا لم تحضر الفكرة نتيجة رهبة أو كثرة الجموع أو علو الحاضرين في العلم والمعرفة فلا يستجيب اللسان ويمتنع عن الكلام.

(وَلا يُمْهِلُهُ النُّطْقُ إِذَا اتَّسَعَ) إذا حضرت الفكرة وكان الجو النفسي مهيئاً انطلق اللسان واسترسل الكلام فإذا اتسع اللسان انحدرت الألفاظ انحدار السيل.

ولعل وجود أمير المؤمنين ع هو الذي منع جعدة من الكلام هيبةً منه وتعظيماً له فهو الذي سنَّ الفصاحة والبلاغة وكان إمام الخطابة.

(وَإِنَّا لأُمَرَاءُ الْكَلاَمِ) نحن أمراء إذا تكلمنا فعيّ ابن أختي ليس لعدم تمكنه بل ذهنه لم يكن حاضراً فإنا في الكلام كالأمير وسائر الناس كالرعية.

(وَفِينَا تَنَشَّبَتْ عُرُوقُهُ، وَعَلَيْنَا تَهَدَّلَتْ غُصُونُهُ) نبتت عروقه كالشجرة الثابت أصلها في الأرض فالكلام فينا ومن طبائعنا، وعلينا تدلت غصونه فالمعاني السامية والألفاظ الصحيحة والبلاغية هي منا فخذوه وتكلموا به.

(وَاعْلَمُوا رَحِمَكُمُ اللهُ) دعاء بصيغة الخبر وكأن الأصل فيه بيان الشوق للمطلوب حق كأنه وقع أو سيقع.

(أَنَّكُمْ فِي زَمَانٍ) هو زمانه عليه السلام او كل الأزمنة.

وصف فساد الزمان:

(الْقَائِلُ فِيهِ بِالْـحَقِّ قَلِيلٌ) تميل الناس للباطل ولا تتكلم بالحق لخبثٍ أو خوفٍ أو مداراة الناس.

(وَاللِّسَانُ عَنِ الصِّدْقِ كَلِيلٌ) أي تَعِب، لا يتكلم بالصدق لغلبة هوى أو خوفاً من السلطان.

(وَاللاَّزِمُ لِلْحَقِّ ذَلِيلٌ) ذليل، لأن الغلبة لأهل الباطل والظالمين فلا يستطيع صاحب الحق ان يظهر في دولتهم وأيام حكمهم، وكأنما يقال له (إذهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إنّا هَا هُنا قَاعِدُون)

ورد في نهج البلاغة أنّ أمير المؤمنين ع قال: مَنْ أَصْلَحَ سَرِيرَتَهُ أَصلَحَ اللهُ عَلَانِيتَهُ وَمَن عَمِلَ لدينِهِ كفاهُ اللهُ أمرَ دنياهُ ومَن أحسنَ فيما بينهُ وبينَ اللهِ كفاهُ اللهُ ما بينهُ وبينَ الناسِ.

(أَهْلُهُ مُعْتَكِفُونَ عَلَى الْعِصْيَانِ مُصْطَلِحُونَ عَلَى الإِدْهَانِ) ملازمون للمعاصي مقيمون عليها، متفقون على المصانعة باللسان دون القلوب أي المجاملة والتملق فظاهرهم لا يحكي باطنهم.

ورد في نهج البلاغة أن أمير المؤمنين ع قال في وصيته للحسن عليهما السلام:
لَا تَكُن عَبدَ غَيرِكَ وَقَد جَعَلَكَ اللهُ حَرّاً.

(فَتَاهُمْ عَارِمٌ، وَشَائِبُهُمْ آثِمٌ) الشاب منهم شرس سيء الخلق والشائب عامل للآثام والمعاصي فلم يمنعه شيبه أن يقلع عن المعصية ويتوب الى الله ويتوجه له فيما بقي من عمره.

(وَعَالِـمُهُمْ مُنَافِقٌ) النفاق هو إظهار خلاف الباطن فعالمهم يمدح الأشرار تزلفاً لهم ويظهر للناس العفة والسداد طلباً للدنيا.

(وَقَارِئُهُمْ مُمَاذِقٌ) قارئ القرآن والناسك العابد يخرج ودّه بالغش ويتودد للناس طمعاً، بينما اللازم أن يكون قارئ القرآن محبباً للناس حق يؤثر القرآن فيهم بسبب محبوبية شخصه.

(لا يُعَظِّمُ صَغِيرُهُمْ كَبِيرَهُمْ) لفساد الكبار والصغار وعدم تعلم وصايا الأنبياء والصالحين.

(وَلا يَعُولُ غَنِيُّهُمْ فَقِيرَهُمْ) لاستيلاء حب المال على قلبه وبسبب بخله وقلة معروفه.